"حتى يلج الجمل في سم الخياط"

"حتى يلج الجمل في سم الخياط".. تعبير قرآني يعبر عن استحالة دخول الكافرين الجنة؛ وهو من المواضع القليلة التي عبّر فيها القرآن عن الاستحالة والتشاؤم من حدوث شيء معين؛ فالأمل والتفاؤل هو الأصل والتبشير خير من التنفير.

وعلى الرغم من صغر حجم سم الخياط الذي استخدمه الله في معرض الحديث عن الاستحالة؛ فإنه بداية لدخول خيط رفيع يبدأ بنسيج رداء وحلل الأعراس وعباءات الملوك؛ وهو ما يدل على أن التفاؤل والأمل موجود حتى في سم الخياط.

ومن التفاؤل أن نحسن الظن بالله سبحانه وتعالى؛ كما حدث مع نبي الله يعقوب عليه السلام حينما قال لبنيه: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ}.

والتفاؤل هو ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ}، والتشاؤم غشاء يغطي شمس النعمة.

وقيل أيضا: إن التفاؤل هو حسن الرؤية في المستقبل.

والتفاؤل هو التصديق بوعد الله سبحانه وتعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}.

والإنسان أحوج ما يكون للتفاؤل في أحلك لحظات الليل ظلمة وأشد أوقات الأزمة؛ ففي هذا الوقت يأتي دور التفاؤل؛ فما حاجاتنا للتفاؤل وقت الرخاء والدعة؟ وهل نحتاج إلى إشعال الشموع إلا في الظلمات؟!.

وقد قيل: علاج المصائب لا يكون بالوجوم و التحازن، ولكن بالرأي السديد والعمل الرشيد، ولا شيء يدمر إمكانيات الأمة ويدحر مستقبلها أكثر من الحزن واليأس والقنوط.

كيف نتعامل مع الصعاب والعقبات؟

الصعاب والعقبات جزء من حياة الفرد وواقعه، ومن النجاح أن يحول الشخص الصعاب إلى مصاعد يصعد عليها إلى المعالي، وما أجمل أن يبدع المرء في تحويل المحنة إلى منحة.

ولله در الشاعر:

ومن يتهيب صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر

والقرآن الكريم يعلمنا حسن التعامل مع الواقع من خلال التعرف على السلبيات والإيجابيات والعمل على تصحيح السلبيات، حيث قال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}. فمن رحمة الله عز وجل بعباده أنه لا يكلفهم ما لا يطيقون.

ومن سننه تعالى في كون أن مع العسر يسرًا؛ فهذا توكيد على انتظار الفرج بعد العسر، ولقد زخرت السيرة النبوية والتاريخ بومضات في سماء الأمة المسلمة يهتدي بها الجميع؛ فقد قامت دولة الإسلام بعد خروج النبي من وطنه فارًا بدعوته، وعاد إليه فاتحا منتصرا بإذن الله، وهذا التاريخ زاخر بعظماء القوم الذين انتصروا بعد هزيمة.

مقومات التفاؤل

وللتفاؤل مقومات لا تستقيم حياة الشخص من دونها؛ فإذا فقدها تحول إلى شخص عابس متشائم، ينظر للحياة من سم الخياط ولا يرى أملاً في شيء.

ومن هذه المقومات:

1- استشعار معية الله: فكيف يتشاءم المسلم وهو في معية ربه الذي يطمئنه بآيات القرآن الكريم {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}.

وكيف يتشاءم وهو مؤمن بقوله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)؛ فهو حاصد للحسنات في السراء بالشكر وفي الضراء بالصبر.

2- حسن الظن بالله: الذي يجعل الإنسان في طمئنينة وتفاؤل مستمر لما رسخ في قلبه من يقين بالله عز وجل وحسن توكل عليه سبحانه ، ونجد البعض يتساءلون عندما يرون شخصًا متفائلاً كيف له أن يكون كذلك في ظل واقع مرير!.

ويأتي الرد: نعم.. هذا هو منهج نبي الإسلام محمد -ﷺ- فقد كان في أشد الأزمات أكثر الناس تفاؤلاً ﷺ ،وهي كذلك قضية عقائدية؛ ففي الحديث القدسي يقول النبي -ﷺ- فيما يرويه عن ربه: "أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء.

3- الأخذ بالأسباب: على المرء أن يسعى وليس عليه أن يدرك النتائج، فبين الأخذ بالأسباب والنجاح علاقة طردية؛ والنتائج الكبيرة العظيمة مرتبطة بسعي كبير، ومن الواضح أن حياة الفرد هي علاقة بينه وبين ربه؛ فعليه أن يسعى ومن الله التوفيق؛ فهذا الطير يخرج خماصا ويعود بطانا، لكنه أدرك حقيقة السعي والمبادرة، والذي خلقه وتكفل به قادر على أن يجمع بينه وبين رزقه.

والله سبحانه وتعالى تكفل بالبشر كلهم وهو خالقهم.. صالحهم وعاصيهم، مؤمنهم وكافرهم {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ}.. هذا هو رد الله على خليله إبراهيم عليه السلام أن الرزق للجميع مؤمنهم وكافرهم لأنه أمر تكفل به الله سبحانه وتعالى، ويبقى على الإنسان حسن الاستخلاف في الأرض، وحمل الأمانة {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} هكذا وعد الله سبحانه وتعالى الساعي إليه راغبا في طاعته أن يهديه إلى سواء السبيل.

4- الصبر: إن الصبر على البلاء صفة العقلاء الذين يعلمون أن البلاء محنة يمر بها الناس جميعاً؛ فما من بشر مؤمناً كان أو كافراً إلا ويموت له حبيب أو قريب لكن.. لمن الأجر؟ إنه للصابر المؤمن.

وما أسعد الصابرين الذين تخاطبهم الملائكة قائلة {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}.

وما أروع أن يبشر الله سبحانه وتعالى الصابرين بقوله: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.

والبلاء أمر طبيعي لكن الصبر هو أول علاج البلاء، ثم محاولة تغييره للأحسن، والله سبحانه وتعالى يعلمنا في كتابه العزيز: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}، وفي آخر سورة آل عمران التي تحدثت عن غزوة أحد التي مني المسلمون فيها بالهزيمة جاء قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون}.

وليس البلاء معناه النهاية كما يظن البعض؛ وكما يسيطر على بعض العقول المتشائمة؛ فالله سبحانه وتعالى يحذرنا من أن يستخفنا الذين لا يوقنون: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}.

وقد قيل: "اليأس والإحباط بضاعة فاسدة، تصدر من قلوب كاسدة، في الخير زاهدة".

التفاؤل سُنة نبوية

هناك الكثير من الأحاديث والمواقف من السنة النبوية المباركة التي تحض على التفاؤل وتدعو إليه؛ من ذلك قوله -ﷺ-: "من قال هلك الناس فإنه أهلكهم"؛ ففيه تحذير من إشاعة روح التشاؤم بين المسلمين.

وقال -ﷺ-: "الخير باق في وفي أمتي إلى يوم الدين". فالأمل والتفاؤل ممدود في أمة الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعل من أعظم التفاؤل أن ينتظر الرسول -ﷺ- الجيل الثاني من أهل الكفر لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ويوحده.

ففي أشد أوقات الرسول ابتلاءً نادى ملك الجبال النبي -صلى الله عليه وسلّم- فسلم عليه، ثم قال: "يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟"، فقال له الرسول ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا".

وتتمثل قمة التفاؤل في حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها".

ولعل من أروع أمثلة التفاؤل ما حدث من الرسول -ﷺ- في وقت من أشد الأوقات ضيقا على المسلمين، وهو يحفر الخندق مع أصحابه، والمشركون قد جمعوا كيدهم للقضاء على الدعوة في مهدها؛ فكان -ﷺ- يبشر أصحابه "فتحت رومية"...

كيف نكون عمليين؟

1- لا تقلل من الخطوات الإيجابية ولو كانت قليلة؛ فقليل دائم خير من كثير منقطع.

2- جفف الدموع وأشعل الشموع وتعايش مع الأزمة، وحولها إلى مكافأة، واعلم أن المتشائم لن يحقق شيئا.

3- اعلم أن الأنبياء أشد الناس ابتلاء ثم الذين يلونهم {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} (الأنعام: 90).

4- لا تجعل التشاؤم يدخلك في دائرة سوء الظن بالله سبحانه وتعالى {يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} (آل عمران: 154)

5- أكثر من ذكر نعم الله عليك {وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}.

6- احذر التشاؤم والمتشائمين؛ فلا تجد المتشائم إلا حاسدا لمن أنعم الله عليهم بالخير، حاقدا على المجتمع من حوله ظنا منه أن هذه النعم فقط إنما هي هبات، وليست نتائج همم عالية وسعي دائم وتوفيق من الله.

7- كن متفائلا آخذا بالأسباب مفوضا أمرك لله محبا للناس ونافعا لمجتمعك.

8- لا تسمع لوسوسة الشيطان فلا يأتي من وسوسته خير {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً}.

9- دع القلق واليأس وابدأ العمل والحياة

10- تكيف مع الواقع وتدبر قول الله عز وجل {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

11- تمسك بذكر الله فما أجمل ذكر الله وما أسعد الذاكرين {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}. واحذر من الغفلة فما أشقى الغافلين {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}.

12- ابحث عن المسجد وتعرف على الصالحين؛ فلعلك تجد فيه صاحبا مخلصا وتوبة صادقة.

أما أولئك الذين جانبوا المسجد، وتركوا الصلاة؛ فمنْ نكدٍ إلى نكدٍ، ومن حزنٍ إلى حزنٍ، ومن شقاءٍ إلى شقاءٍ {فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}".

13- ثق أن النفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى فلم التشاؤم والعبوس؟ كن متفائلا. فلا تجد المتفائل إلا مبتسما ذاكرا لأنعم الله شاكرا لفضله.

14- انتصر بنفسك أولا، وقد قيل: "المهزوم مَن هزمته نفسه قبل أن يهزمه عدوه".

15- اعلم أن الشخص المتفائل صاحب جوانب إيجابية متعددة وأن المتشائم صاحب علل سلبية متنحية، ويتجلى ذلك في قول الله عز وجل: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

أسماء سلام